سلسلة
مفاهيم يجب أن تصحح
٣

# كلمة هادئة في التوسل

الدكتور عمر عبد الله كامل

مؤسسة طعمة الحلبي
للطباعة والنشر والتوزيع

# كلمة هادئة

# في

# التوسل

# الكاتب في سطور

- كاتب ومفكر إسلامي سعودي معاصر .
- من مواليد مكة المكرمة ١٣٧١هـ .
- حاصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة الملك سعود بالرياض ١٩٧٥م .
- حاصل على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة كراتشي ـ باكستان .
- حاصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة كراتشي ـ باكستان .
- حاصل على درجة الدكتوراه في الشريعة وأصول الفقه من الأزهر الشريف ـ مصر .
- الإعداد النهائي للبحث للمراحل النهائية لإعداد رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي من جامعة ويلز ـ المملكة المتحدة .
- له عدة مؤلفات في الدراسات الإسلامية والاقتصاد .
- كما له عدة بحوث ودراسات إسلامية واقتصادية وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية المحلية والعربية والعالمية وله العديد من المقالات الصحفية .

سلسلة
مفاهيم يجب أن تصحح
٣

# كلمة هادئة في التوسل

الدكتور عمر عبد الله كامل

مؤسسة طعمة الحلبي
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



مؤسسة طعمة الحلبي
للطباعة والنشر والتوزيع
حلب - أقيول
هاتف ٣٦٢٤٨٨٨ موبايل ٠٩٣-٣٣٢٦٧٦

# مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي جعل محمداً رحمة للعالمين ، وأغاث برحمته عموم المخلوقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الكمال ، خير من تُضرب له أكباد المطي وتشد إليه الرحال ، وعلى آله وصحبه خير صحب وآل .

وبعد :

فهذه سلسلة « مفاهيم يجب أن تصحح » ، والتي فاز بقدم السبق فيها المرحوم السيد الأستاذ الدكتور محمد علوي المالكي رحمه الله ، وجمعنا به في جنات النعيم .

وكم كان مصيباً حينما نادى منذ أمد بعيد بتصحيح هذه المفاهيم ، فالسكوت عن مجازفة البعض ـ والتي وصلت إلى حد التكفير والاتهام بالشرك بسبب المغالاة في هذه المفاهيم ، وجَعْل بعضها من العقائد وهي من

الفروع ـ أحدث كثيراً من الفتن التي نحصد اليوم نتائجها .

والمفهوم الذي بين يدينا هو ثاني هذه المفاهيم ، وهو مفهوم « التوسل » .

بَينت في هذه الرسالة مشروعية هذا الأمر ، ونقلت اتفاق علماء المسلمين عليه ، مستنداً في كل ذلك إلى الكتاب والسنة ، بما لا يدع مجالا للشك في مشروعية ذلك ، ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

واللهَ أرجو القبول والتوفيق إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

د . عمر عبد الله كامل

في ربيع الأول ١٤٢٦هـ

القاهرة ـ مصر

# مفهوم التوسل

لا غرابة أن نتوسل به ﷺ أو بغيره من الصالحين إلى الله تعالى فيما تدعونا الضرورة له ، وتعوزنا الحاجات إليه ، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى ، شرع لنا ذلك في كتابه ، وسن لنا الرسول ﷺ هذا في سنته ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (1) .

ويقول سبحانه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (2) .

والوسيلة : ما يتقرب به إلى الغير .

---

(1) المائدة : من الآية ٣٥ .

(2) الإسراء : من الآية ٥٧ .

والجمع الوسل ، والوسائل ، والتوسيل والتوسل واحد ، يقال : وسل فلان إلى ربه وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة ، إذا تقرب إليه بعمل .

وهي أيضا : كل ما جعله الله سببا في القربى عنده ، ووصلة إلى قضاء الحوائج منه ، والمدار فيها على أن يكون للوسيلة قدر وحرمة عند المتوسل إليه .

ولفظ الوسيلة عام في الآيتين ، فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين ، في الحياة وبعد الممات ، وبإتيان الأعمال الصالحة على الوجه المأمور به ، وللتوسل بها بعد وقوعها ، كما وقع من الثلاثة الذين آووا إلى غار ، فسال السيل فألقى على الغار صخرة سدت فمه ، فصاروا لا يستطيعون الخروج ، وهو في صحيح البخاري[1] وغيره ، وفيه أنهم قالوا :

« يا هؤلاء ، انه لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا

---

(١) البخاري (٣٤٦٥) عبدالباقي .

الله تعالى بصالح ما عملتم » فدعا كل منهم بصالح ما يرجو قبوله من عمله ، فاستجاب الله تعالى لهم ، وفرج عنهم .

وفي هذا الحديث جواز التوسل بالعمل الصالح ، حيث أقر الرسول ﷺ ذلك ، وذكره في معرض الثناء ، يقول الإمام النووي رضي الله عنه : « استدل أصحابنا بهذا ، على أنه يستحب للإنسان ، أن يدعو في حال كربه ، وفي دعاء الاستسقاء وغيره ، بصالح عمله ، ويتوسل إلى الله تعالى به ، لأن هؤلاء فعلوه فاستجيب لهم ، وذكره ﷺ في معرض الثناء عليهم بجميل فضائلهم » .

وروى الطبراني وغيره ، عن أنس أنه قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد أم عليّ رضي الله عنهما ، دخل عليها رسول الله ﷺ . . . الحديث ، وفي آخره :

أنه لما فرغ من حفر قبرها ولحدها دخل رسول الله ﷺ

فاضطجع فيه وقال : « الله الذي يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها ، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين » [١] .

ففي هذا الحديث الثابت ، توسله عليه الصلاة والسلام ، إلى ربه بذاته ، التي هي أرفع الذوات قدراً ، وبإخوانه من النبيين ، وجلهم موتى عليهم جميعا الصلاة والسلام .

فانظر بأيهما تقتدي ، أبرسول الله ﷺ ، في توسله بالأنبياء أحياء كانوا أو أمواتاً ؟ أم بهؤلاء المبتدعة ، المغالين في بدعتهم ، في منعهم التوسل بمن مات من الأنبياء والصالحين ، وعدهم ذلك غير مشروع أو شركاً ؟

وأخرج البيهقي في (دلائل النبوة) ـ وقد التزم ألا يذكر في هذا الكتاب حديثا واحدًا موضوعاً ـ والطبراني

---

(١) الطبراني في الكبير (٣٥١/٢٤) والأوسط (٧٦/١) .

في (معجمه الصغير) ، والحاكم في (المستدرك) ، واللفظ للطبراني ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب ، أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ؟ فقال الله تعالى : يا آدم ، كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال : يا رب ، إنك لما خلقتني رفعت رأسي ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم ، انه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » .

ورواه الطبراني وزاد فيه : « وهو آخر الأنبياء من ذريتك » (١) .

وهذا الحديث شاهد يرتقي به إلى درجة الحسن رواه

(١) الحاكم في المستدرك (٢/٦٧٢) ، الطبراني في الأوسط (٦/٣١٣) .

ابن بشران بإسناد قوي ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبيا ؟ قال : « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء ... » الحديث [1] .

وممن أكد هذا الخبر وأخذ به الإمام مالك بن أنس فقال للمنصور متحدثًا عن النبي ﷺ : « فهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة . . . » .

وفي هذا الحديث دلالة على مشروعية التوسل برسول الله ﷺ ، قبل أن يتشرف هذا العالم بوجوده ، وأنه لا يشترط في صحة التوسل كونه حياً في دار الدنيا ، ويعلم من هذا أن القول بأن التوسل لا يصح بأحد إلا وقت حياته في دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى .

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الوفا بفضائل المصطفى من طريق الحافظ أبي الحسن ابن بشران وإسناده قوي كما قال الحافظ ابن حجر .

فالتوسل بسيدنا رسول الله ﷺ ، والتوسل بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والتوسل بالصالحين من عباد الله سبحانه ، والاستغاثة بهم جميعاً ، على النحو الذي عليه الأمة من اعتقاد أنهم عباد مكرمون ، مقبولوا الشفاعة عند الله تعالى بفضله هو مما أجمعت عليه الأمة ، ودل عليه الكتاب ، ونطقت به صحاح السنة ، وأقوال العلماء ، وسلف الأمة .

وفي قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في خطبته بمحضر الصحابة والتابعين ، في حق العباس : « واتخذوه وسيلة إلى الله سبحانه » ، الدلالة الواضحة على أنهم لم يكونوا يفهموا من الوسيلة إلا الأعمال فقط ، بل ابتغاء الوسيلة عندهم شامل للتوسل بالأنبياء والصالحين ، وما يتعلق بهم .

وعلى أي حال من الأحوال ، ومهما بلغ قول المنكر من الإنكار ، فإن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل

حال ، قبل خلقه ، وبعد خلقه ، في مدة حياته في الدنيا ، وبعد موته في مدة البرزخ ، وبعد البعث في عرصات القيامة ، والجنة .

# أنواع التوسل

التوسل على نوعين :
النوع الأول : التوسل بمعنى الدعاء بجاه المُتَوَسَّل به .
النوع الثاني : التوسل بمعنى طلب الدعاء .
وهاك تفصيل لهما :

## النوع الأول : التوسل بمعنى الدعاء بجاه المُتَوَسَّل به

بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى بجاه المتوسل به ، أو ببركته ، ولا فرق في هذا النوع من التوسل بين أن يتوسل بذي القدر الرفيع قبل وجوده ، وبعد وجوده ، في حياته الدنيا ، أو حياته الأخرى ، فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة ، وسنفصل القول حسبما ورد في كل منها من أخبار صحيحه ثابتة :

الحالة الأولى : التوسل بذي القدر الرفيع قبل وجوده :

ويدل على ذلك آثار عن الأنبياء الماضين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، اقتصرنا منها على ما تبين لنا صحته ، وهو :

ـ ما رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين قال : حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم عليه السلام الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي ، فقال الله : يا آدم ، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال : يا رب ، لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت في من روحك ، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » .

قال الحاكم : « هذا صحيح الإسناد » ، ورواه البيهقي أيضًا في دلائل النبوة[1] ، وذكره الطبراني وزاد فيه : « وهو آخر الأنبياء من ذريتك » .

ـ وذكر الحاكم في مستدركه ، وعبد الرزاق في مصنفه ، وابن أبي شيبة في مسنده : عن قتادة بن سعيد ابن المسيب عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال :

« أوحى الله إلى عيسى عليه السلام ، يا عيسى آمن بمحمد ، وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولاه ما خلقت الجنة والنار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسكن » .

ـ وأما ما ورد من توسل نوح ، وإبراهيم ، وغيرهما ، من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فذكره المفسرون واكتفينا عنه بهذا الحديث لجودته وتصحيح الحاكم له .

---

(١) سبق تخريجه .

ولا فرق في هذا المعنى ، بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل ، أو الاستعانة ، أو التشفع ، أو التجوه .

والداعي بمثل هذا التوسل وما في معناه متوسل بالنبي ﷺ ، لأنه جعله وسيلة لإجابة الله دعاءه ، ومستغيث به .

والمعنى أنه استغاث الله به (أي طلب به من الله الغوث) على ما يقصده ، فالباء هاهنا للسببية ، وقد ترد للتعدية كما يقول : من استغاث بك فأغثه ، ومستشفع به ، ومتجوه به ، ومتوجه به ، فإن التجوه والتوجه راجعان إلى معنى واحد .

ولا يصح أن يقال : المتشفع بالشخص من جاء به ليشفع ، فكيف يصح أن يقال : يتشفع به ؟

فإن الكلام ليس في العبارة ، وإنما الكلام في المعنى ، وهو سؤال الله بالنبي ﷺ كما ورد عن آدم ، وكما يفهم الناس من ذلك ، فإنهم يفهمون من التشفع والتوسل

والاستعانة والتجوه ذلك ، ولا مانع من إطلاق اللغة بهذه الألفاظ على هذا المعنى ، والمقصود ، جواز أن يسأل العبد الله تعالى ، بمن يقطع أن له عند الله قدراً ومرتبة .

ولاشك أن النبي ﷺ له عند الله قدر عالٍ ومرتبة رفيعة ، وجاه عظيم .

وفي العادة أن من كان له عند الشخص قدر ، بحيث أنه إذا شفع عنده قبل شفاعته ، فإذ انتسب إليه شخص في غيبته ، وتوسل بذلك وتشفع به فلا حرج ، وان لم يكن حاضراً ولا شافعاً ، وعلى هذا التوسل بالنبي ﷺ قبل خلقه .

ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى ، ولا داعين إلا إياه ، ويكون ذكر المحبوب أو التعظيم سببا في ذلك للإجابة ، كما في الأدعية الصحيحة المأثورة .

هذا عن التوسل بصالح العمل . .

أما عن التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته :

فيدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (١) .

ولعل في قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (٢) .

وطلب الدعاء من الغير أرجى للإجابة ، إذا كان المطلوب منه الدعاء من أهل التقوى والصلاح .

والتوسل بدعاء غيره ﷺ قد سنه لنا ، حينما قال لعمر بن الخطاب ﷺ ، وقد استأذنه في العمرة فأذن له

---

(١) النساء : من الآية٦٤ .

(٢) التوبة : من الآية١٠٣ .

وقال له : « لا تنسنا يا أخي من دعائك »[١] .

وسنه لعمر ولغيره تبعا له ، فيما رواه مسلم في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس ، وله والدة ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم »[٢] .

وفي رواية : « وله والدة هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » .

وقد طلب عمر منه أن يستغفر له ، فدل ذلك على جواز التوسل بدعاء المسلمين ، ولو كان الداعي أقل درجة من المدعو له .

ومما يدل على ذلك أيضا . حثه ﷺ لنا على سؤال الله له الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ، والمقام

---

(١) سنن أبي داود (١٤٩٨) ، وسنن ابن ماجة (٢٨٩٤) .
(٢) مسلم (٢٥٤٢) .

المحمود ، وسؤالنا الله أن يصلي عليه ، وما إلى ذلك .

وهذا من أوجه التوسل التي لا يمانع فيها أحد من العلماء .

فالمسئول في هذا الدعوات كلها هو الله وحده لا شريك له .

والمسئول به مختلف ، ولم يوجب ذلك إشراكاً ، ولا سؤال غير الله سبحانه وتعالى .

كذلك السؤال بالنبي ﷺ ليس سؤالا للنبي ﷺ ، بل هو سؤال لله به .

وإذا جاز السؤال بالأعمال وهي مخلوقة ، فالسؤال بالنبي ﷺ من باب أولى ، ولا يسمع القول بأن الأعمال تقتضي المجازاة عليها ، لأن استجابة الدعاء لم يكن عليها ، وإلا لحصلت بدون ذكرها ، وإنما كانت على الدعاء بالأعمال .

وليس هذا المعنى مما تختلف فيه الشرائع حتى يقال :

إن ذلك شرع من قبلنا ، فإنه لو كان ذلك مما يخل بالتوحيد لم يجيء في ملة من الملل ، فإن الشرائع كلها متفقة على التوحيد ، فما المانع من الدعاء بذلك ، فإن اللفظ إنما يقتضي أن للمسئول به قدراً عند المسئول .

وتارة يكون المسئول به أعلى من المسئول .

أما الباري سبحانه وتعالى ، كما في قوله ﷺ : « من سألكم بالله فأعطوه »(١) فالمسئول به هو الله سبحانه وتعالى ، وهو صاحب الكبرياء الأعلى ، والجلال الأسمى .

وفي حديث : الأبرص ، والأقرع ، والأعمى : « أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن . . . »(٢) الحديث ، وهو مشهور .

وأما بعض البشر ، ويحتمل أن يكون من هذا القسم

---

(١) النسائي (٢٥٦٧) أبو داود (٥١٠٨) ، (٥١٠٩) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٣٤٦٤) ، مسلم (٢٩٦٤) .

قول عائشة لفاطمة : « أسألك بما لي عليك من حق » .

وتارة يكون المسئول أعلى من المسئول به ، كما في سؤال الله تعالى ﷺ فإنه لاشك أن للنبي ﷺ قدراً عند الله سبحانه ، ومن أنكر ذلك فليس من الإسلام في شيء .

فمتى قال : أسألك بالنبي ﷺ فلا اعتراض عليه ، ولاشك في جوازه .

وكذا إذا قال : بحق سيدنا محمد ﷺ والمراد بالحق الرتبة والمنزلة ، والحق الذي جعله الله على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله بفضله له عليه ، كما في الحديث الصحيح ، قال : « وما حق العباد على الله » [1] ؟ وليس المراد بالحق الوجوب فانه لا يجب على الله شيء . وعلى هذا المعنى ، يحمل ما ورد عن بعض الفقهاء في الامتناع من إطلاق هذه اللفظة .

الحالة الثانية : التوسل بذي القدر الرفيع في حياته :

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٢٨٥٦) ، مسلم (٣٠) .

والأدلة على هذه الحالة كثيرة ، فمن ذلك :

ـ ما رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه في كتاب الدعوات : عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ ، فقال : ادع الله أن يعافني . قال : « إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك » قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعوا بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي ، اللهم شفعة فيّ » [1] .

قال الترمذي : « هذا حديث صحيح غريب » ، ورواه النسائي في (اليوم والليلة) وفي (دلائل النبوة) للحافظ أبي بكر البيهقي .

ثم قال البيهقي : وزاد محمد بن يونس في روايته : « فقام وقد أبصر » . اهـ .

(١) الترمذي (٣٥٧٨) .

قال البيهقي : ورويناه في كتاب الدعوات بإسناد صحيح ، عن روح بن عبادة ، عن شعبة قال : « ففعل الرجل فبرأ » .

ورواه حماد بن سلمة بسنده عن عثمان بن حنيف فذكره وفي آخره : « يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي عن بصري ، اللهم شفعه في وشفعني في نفسي » .

قال عثمان : « فو الله ما تفرقنا ولا طال الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط » اهـ .

وسنذكر هذا الحديث أيضا ، في التوسل بالنبي ﷺ بعد موته من طريق الطبراني ، والبيهقي ، وقد كفانا الترمذي والبيهقي رحمهما الله بتصحيحهما هذا الحديث ، مؤنة النظر في تصحيحه ، وذلك حجة في المقصود .

ويقال : بأن ذلك إنما كان لأن النبي ﷺ شفع فيه ، فلهذا قال له أن يقول : « إني توجهت إليك بنبيك » .

فإن عثمان بن حنيف وغيره عملوا بما في ذلك

الحديث بعد موته ﷺ ، وذلك يدل على أنهم لم يفهموا اشتراط الحياة ، وليس في الحديث أن النبي ﷺ بيَّن اشتراط ذلك .

ولو لم يكن في ذلك فائدة لما علمه النبي ﷺ ، ولما أرشده إليه ، ولما قال له : إني قد شفعت فيك ، ولكنه ﷺ أراد أن يحصل من صاحب الحاجة التوجه بذل الاضطرار والافتقار والانكسار ، مستغيثا بالنبي ﷺ فيحصل كمال مقصوده .

ولو كان التوسل عبادة لما جاز في حق الحي كعدم جوازه في حق الميت لأن العبادة لا يصح صرفها لغير الله حياً أو ميتاً .

ولاشك أن هذا المعنى حاصل في حضرة الرسول ﷺ ، وحاصل في غيبته في حياته ، وحاصل بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فإنا نعلم شفقته ﷺ على أمته ، ورفقه بهم ، ورحمته لهم ، واستغفاره لجميع المؤمنين ،

وشفاعته . ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

وهو صلوات الله وسلامه عليه ، أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

فإذا انضم إليه توجه العبد به ﷺ حصل هذا الغرض الذي أرشد النبي ﷺ الأعمى إليه .

ـ ومما لم يتقدم ذكره ، ما أخرجه جمع أئمة حفاظ ، منهم : الإمام أحمد في مسنده ، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ، والطبراني في الدعاء ، وابن ماجه في سننه ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، والإمام النووي في الأذكار وغيرهم :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من خرج من بيته إلى الصلاة وقال : اللهم إني أسألك

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاي هذا ، فإني لم أخرج أشرا ، ولا بطراً ، ولا رياء ، ولا سمعة ، وخرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تعيذني من النار ، وأن تدخلني الجنة ، وأن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه حتى يفرغ من صلاته ، واستغفر له سبعون ألف ملك » (١) .

فهذا ترغيب من رسول الله ﷺ للأمة في التوسل إلى الله بجميع المؤمنين ، السائلين له من الأنبياء ، والأولياء ، أحياء كانوا أم أمواتاً .

- وروى ابن السني ذلك من فعله ﷺ عن بلال مؤذن رسول الله ﷺ ، قال : كان النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال : « بسم الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم إني أسألك بحق

(١) أحمد ١٠٧٢٩٠ ابن ماجه (٧٧٨) .

السائلين عليك ، وبحق مخرجي » الحديث .

والمراد بحق السائلين في الحديث ، ما جعل الله لهم من الحرمة عنده والكرامة عليه ـ تفضلاً منه عز وجل ـ .

ويعلم من حديث بلال هذا ، أن النبي ﷺ كان يتوسل في دعائه بالصالحين الأحياء والأموات ، الأولين منهم والآخرين .

فهل أنصفه عليه الصلاة والسلام مَن أبى وأنكر التوسل به وهو أرفع الخلق مكانة ؟ وأعلاهم قدراً ؟ .

أو ليس قوله ﷺ لمن شكا إليه ذهاب بصره : « قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك » الحديث السابق . في قوة قوله للأمة : توسلوا بي في كل الملمات ، في جميع الأوقات في حياتي وبعد مماتي ، فإن لي من المكانة عند ربي والجاه لديه ، ما لا يرد معه سائلاً ، متوسلاً بي ، منادياً لي ، مستغيثاً بي .

الحالة الثالثة : التوسل بذي القدر الرفيع بعد وفاته :

ويدل على جواز ذلك :

ـ ما رواه الطبراني في معجمه الكبير : « عن عثمان ابن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في حاجة له ، فكان عثمان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته ، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه ، فقال له عثمان بن حنيف : إيت الميضأة فتوضأ ، ثم إيت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : « اللهم إني أسالك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيقضي حاجتي » وتذكر حاجتك .

فانطلق الرجل ، فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان ، فجاء البواب حتى أخذه بيده فأدخله على عثمان بن عفان ، فأجلسه معه على الطنفسة ، فقال : ما حاجتك ؟ .

فذكر حاجته وقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها .

ثم إن الرجل خرج من عنده ، فلقي عثمان بن حنيف ، فقال له : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ، ولا يلتفت إلي حتى كلمته في . فقال عثمان بن حنيف :

والله ما كلمته ، ولكني شهدت رسول الله ﷺ ، وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبي ﷺ : « أو تصبر » ؟ فقال : يا رسول الله ، إنه ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال له النبي ﷺ : « إيت الميضأة ، فتوضأ ثم صلي ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات ... » .

قال ابن حنيف : فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث ، حتى دخل علينا الرجل ، كأنه لم يكن به ضرر قط » [(١)] .

اهـ .

والاحتجاج بهذا الأثر ، من جهة فهم عثمان رضي الله تعالى عنه ، ومن حضره ممن هم أعلم بالله ورسوله .

---

(١) الطبراني في الكبير (٩/٣٠) .

# النوع الثاني : التوسل بمعنى طلب الدعاء

ومن ذلك التوسل بالنبي ﷺ بمعنى طلب الدعاء منه .

وقد يكون في حياته ﷺ ، وهذا متواتر ، والأخبار متواترة به أيضا . حتى لا يمكن حصرها .

وقد كان المسلمون يفزعون إليه ويستغيثون به في جميع ما نزل بهم وما نابهم :

- كما في الصحيحين : « أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة ، ورسول الله ﷺ ، قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله تعالى أن يغيثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت . قال : فلا والله ما

رأينا الشمس ستا »[1] . الحديث .

ـ وفي سنن أبي داود في كتاب السنة : عن جبير بن مطعم قال : « أتى رسول الله ﷺ ، أعـرابي فقـال : يـا رسـول الله ، جهـدت الأنفـس ، وضـاعت العيـال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك . قال رسـول الله ﷺ : « ويحـك أتـدري مـا تقـول ؟ إنـه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظـم مـن ذلك »[2] وذكر الحديث ، موافق لمقصودنا ، فإنه لم ينكر الاستشفاع به ، وإنما أنكر الاستشفاع بالله ، ولعل سبب ذلك ، أن شأن الشافع أن يتواضع للمشفوع عنده .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسـول الله ، أتينـاك

---

(١) البخاري (١٠١٣ن١٠١٤) ، مسلم (٨٩٧) .

(٢) أبو داود (٤٧٢٦) .

وما لنا صبي يغط ، ولا بعير يئط ، وأنشد :

أَتَيْنَاكَ وَالعَذْرَاءُ يُدمى لَبَابُهَا ... وَقَدْ شُغِلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطِّفْلِ
وألقَى بِكَفَّيهِ الفَتَى لاسْتِكَانَةٍ ... مِنَ الْجُوعِ ضعفاً مَا يَمُرُّ وَلا يحلِي
ولا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا ... سِوَى الْحَنْظَلِ العَامِيِّ وَالعِلْهِزِ الفَسْلِ
ولَيْسَ لَنَا إلا إِلَيْكَ فِرَارُنَا ... وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلا إِلى الرُّسْلِ

فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر فرفع يديه ثم قال : « اللهم اسقنا » وذكر الدعاء إلى أن قال :

فما رد النبي ﷺ يده حتى ألقت السماء بأوراقها ، وجاء أهل البطانة يصيحون : الغرق الغرق . فقال النبي ﷺ : « حوالينا ولا علينا » فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل ، وضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه . ثم قال : « لله در أبي طالب ، لو كان حياً لقرت عيناه ، من ينشدنا قوله » ؟ فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : يا رسول الله ، كأنك تريد قوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطيف به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

فقال رسول الله ﷺ : « أجل » .

ـ ونص قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ (١) صريح في ذلك .

وكذلك يجوز ويحسن ، مثل هذا التوسل ، بمن له نسبة من النبي ﷺ كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ قحط استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ويقول : « اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك محمد ﷺ ، فاسقنا ، قال : فيسقون » .

وكذلك يجوز مثل هذا التوسل بسائر الصالحين ، وهذا شيء لا ينكره مسلم ، ولا متدين بملة من الملل ، ولا يقال : لِمَ توسل عمر بن الخطاب بالعباس ولم

---

(١) النساء : من الآية ٦٤ .

يتوسل بالنبي ﷺ ؟ أو بقبره ؟ فليس في توسله بالعباس إنكار للتوسل بالنبي ﷺ أو بالقبر .

فعن أبي الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها ، فقالت : « فانظروا قبر النبي ﷺ ، فاجعلوا منه كوى إلى السماء ، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف » ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل ، حتى تفتقت من الشحم ، فسمي عام الفتق » .

اللهم بحق نبيك محمد ﷺ أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين .

# الفهرس



## الكاتب في سطور

# الدكتور / عمر عبدالله كامل

- كاتب ومفكر إسلامي سعودي معاصر .
- من مواليد مكة المكرمة ١٣٧١هـ .
- حاصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة الملك سعود بالرياض ١٩٧٥م .
- حاصل على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة كراتشي ـ باكستان .
- حاصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة كراتشي ـ باكستان .
- حاصل على درجة الدكتوراه في الشريعة وأصول الفقه من الأزهر الشريف ـ مصر .
- الإعداد النهائي للبحث للمراحل النهائية لإعداد رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد الإسلامي من جامعة ويلز ـ المملكة المتحدة .
- له عدة مؤلفات في الدراسات الإسلامية والاقتصاد .
- كما له عدة بحوث ودراسات إسلامية واقتصادية وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية المحلية والعربية والعالمية وله العديد من المقالات الصحفية .

مؤسسة طعمة الحلبي
للطباعة والنشر والتوزيع
حلب ـ أقيول
هاتف ٣٦٣٤٨٨٨ موبايل ٠٩٣-٣٣٢٦٧٦